الأستاذة: فريال تواتي

المادة: السرد السير ذاتي.

الفئة المستهدفة: سنة ثانية ماستر (تخصص أدب حديث ومعاصر).

محاضرة10: مبررات الكتابة السردية السير ذاتية

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على أهم الدوافع والمبررات التي تدفع الكاتب إلى تدوين سيرته الذاتية.

تمثل السيرة الذاتية أحد أنواع الخطابات الأدبية التي يقبل عليها الكثير من المبدعين مدفوعين في ذلك بعدة دوافع خارجية وداخلية، لعل من أبرزها:

"**1-الحاسة الأوتوبيوغرافية:** والتي إذا توفرت لدى الفرد تكون أقوى دافع لتدوين سيرته الشخصية مهما كانت بسيطة وقليلة الخصوصية؛ ونقصد بالحاسة الأوتوبيواغرافية رغبة داخلية في تدوين السيرة الشخصية، أي رغبة فطرية في الخلود لدى من يشعرون بالتميز والتفرد تدفعهم إلى محاولة نحت أسمائهم في ذاكرة الأدب والتاريخ حتى لا تنسى إنجازاتهم وشخصياتهم التي تستحق البقاء، لذلك نجدهم يقدمون على كتابة سيرهم الذاتية.

2-الإحساس بدنو الأجل: إن التقدم بالسن باعث مهم على صياغة مسيرة الحياة في بدايات نشأة هذا الفن، وهذه هي القاعدة العامة، فأكثر من 62% من كتاب السيرة الذاتية العربية أصدروا مؤلفاتهم في بداية الشيخوخة أو في نهايتها و02% من هؤلاء الكتاب دونوا سيرهم الذاتية في أواسط العمر"[1]، فقد شكل كل من الإحساس بقرب الأجل والشيخوخة والمرض دافعا يقف وراء كتابة الكثير من السير الذاتية العربية، ومن أمثلة ذلك نجد أن الدافع وراء تدوين إدوارد سعيد لنصه السير ذاتي "خارج المكان" "هو المرض الذي أصابه وغير كثيرا مسيرة حياته، وجعله تحت وطأة ترقب الموت الوشيك"[2].

"**3-نقل تجربة ما إلى الآخرين:** يكتب الفرد سيرته الذاتية أحيانا استجابة لدوافع تبتعد عن الجانب النفسي للذات ويطلق عليها دوافع خارجية، كالرغبة في تعليم الآخرين وتوجيههم، ونصحهم أحيانا من خلال نقل خلاصة خبرته بالحياة"[3]، ولعل هذا الدافع "يحدث عندما يرى كاتب السيرة أن حياته تصلح لأن تكون عبرة للآخرين"[4]، خاصة إذا ضمنها الكثير من الصعوبات التي عانتها ذاته.

ولعل "وعي المؤلف بضرورة عرض سيرته الزاخرة بالتجارب والمليئة بالمعاناة لا يخلو من مسحة نرجسية تجعله ينظر إلى حياته على أنها تستحق أن تكتب لتظل شهادة حية عن قصة معاناة انتهت إلى نجاح متميز أو انتصار كبير"[5]. ومن النماذج التي تؤكد هذا الطرح نجد كتاب الأيام لطه حسين، الذي صور فيه شخصيته وحياته، معتبرا في ذلك "أن حياته خير مثل للانتصار على البيئة،... ثم هو من جهة أخرى يمهد لإحقاق الانتصار الذاتي الذي أحرزه بتصوير الإخفاق الذي كان من نصيب الشخصيات الأخرى"[6]، فهو يريد "لقارئ سيرته الذاتية أن يؤمن بالمعجزة التي تحققت في حياته، فمن طفولة قاسية ومعاناة مريرة وعمى صبغ حياته بجو قاتم مظلم إلى نجاح وتفوق وانتصار وتميز"[7].

"**4-الرد على آراء جدالية تعرض لها المؤلف:** يؤسس بعض كتاب الروايات السير ذاتية مؤلفاتهم للتأكيد على رأي ما تبناه صاحبه وآمن بصحته فصار يتعلق بمسيرة حياته بأكملها، كما أن قناعة المؤلف بموقف معين تجاه قضايا المجتمع أو السياسة أو الوجود تدفعه إلى ترجمتها من خلال سيرته الشخصية، وكذلك إذا تعلق الأمر بالرد المباشر أو غير المباشر على آراء جدلية تعرض لها الكاتب في إطار حياته الفكرية أو الثقافية أو السياسية"[8]، ومن أمثلة ذلك ما كتبه العقاد في سيرته الذاتية خاصة في الجزء الثاني من مؤلفه عن حياته الأدبية والاجتماعية والسياسية ومعاركه القلمية.

"**5-التمرد على الأعراف وكسر القيود الاجتماعية:** هذا الدافع من أقوى بواعث الكتابة الأوتوبيوغرافية النسائية على وجه الخصوص، فلطالما شعرت المرأة العربية بالاضطهاد

والتعسف والظلم، فثمة مجموعة من النساء المبدعات اللائي استحثتهن نظرة الاحتقار من المجتمع على إمضاء روايات مادتها الأولى هي الحياة الخاصة، والتي تجسد فيها الأنثى كأنموذج للبطولة، من خلال الشخصية الرئيسة، فظهرت المرأة شخصية نامية عميقة من خلال حضور أو غياب طفولتها مرورا بمراهقتها، ووعيها وغربتها وصدمتها وفشلها، إلى لحظة التنوير التي تبلغ فيها الأنثى أوج درجات القوة والانتصار أين تعلن تمردها على بعض الأعراف والقيود الاجتماعية التي كبلتها في وقت ما من حياتها وهي بذلك تحصل على الدافع الذي يرسم طريق كتابة سيرتها الذاتية. إننا نكتشف هذا الدافع ونحن نقرأ عديد الروايات السير ذاتية النسوية الحديثة وقد صرحت بعض المؤلفات بذلك في المقدمة مثل نبوية موسى التي تعتبر سيرتها"[9] توثيقا لما عاشته نبوية من صعوبات، ولعل حاجتها إلى "أن تبرئ نفسها، وتعيد الحقيقة إلى نصابها، هي التي دفعتها إلى كتابة "تاريخي بقلمي"، فهي قد واجهت كثيرا من النكبات والاتهامات والاضطهاد من أجهزة وزراة التعليم وكبار المسؤولين التي أدت إلى تنقلها بين مناصب حكومية متعددة، وإلى فصلها من الخدمة، وإغلاق مدراسها ومجلتها واعتقالها ومحاكمتها، بل نجد الدافع الحقيقي"[10] في كتابة سيرتها الذاتية تمثل في "الثأر من أعدائها، فنبوية تحرص على الانتقام من كل من دبر لها المكائد وحاك لها الدسائس للتخلص منها"[11]؛ وهذا يعني أن نبوية موسى وجدت في التمرد وسيلة لكتابة سيرتها الذاتية وتبرئة نفسها من الاتهامات التي تعرضت لها.

إلى جانب هذه الدوافع نجد **جورج ماي** يقوم بتصنيف بواعث كتابة السيرة الذاتية إلى صنفين هما الدوافع العقلية والدوافع العاطفية:

أ-الدوافع العقلية:

1-التبرير:

يعد أحد أهم المقاصد العقلية وهو يعني: "حاجة المرء للكتابة ليبرر على رؤوس الملأ ما كان أتاه من أفعال أو صدع به من آراء، ويكون شعور المرء بتلك الحاجة أكثر إيلاما وأشد إلحاحا على وجه الخصوص إن ذهب في ظنه أن الناس قد افتروا عليه"[12]، وفق هذا الدافع أو"المقصد التبريري كتبت نبوية موسى سيرتها، فلقد كانت بحاجة إلى أن تبرئ نفسها من الاتهامات التي نسبت إليها والتي كانت أشدها إيلاما تهمة الفساد الأخلاقي، وغيرها من المكائد والدسائس التي حاولت المؤلفة تبريرها لشعورها بافتراء غيرها عليها، وسوء ظن الناس بها"[13].

2-الشهادة:

تشكل أحد أهم المقاصد العقلية وقد عرفها جورج ماي بقوله: "ما يصرح به كثير من مؤلفي السيرة الذاتية من شعور بضرورة العمل بوجه من الوجوه على ألا يزول بزوالهم ما كانوا عليه لسبب أو لأخر شاهدين مقربين"[14]. من ذلك أننا نقرأ كثيرا من سير ذاتية كان "هدف أصحابها أن يتركوا شهادة للتاريخ والأمة يؤكدون من خلالها حرصهم على استمرارية مبدأ ما أو قضية ما أرادوا لها التخليد في التاريخ، كما قد تكون شهادة على عصر بعينه أوحدث ما أو حتى شهادة كانت خلاصة وقوع الكاتب في التضليل والخطأ، وأراد تجنيب غيره من الأجيال الوقوع في مثل ما وقع فيه"[15].

ب-الدوافع العاطفية:

ونجدها عند جورج ماي تشمل صنفين: "صنفا يتصل بشعور الكاتب بمرور الزمن وقوامه التلذذ بالتذكار أو الجزع من المستقبل، وصنفا يتصل بالحاجة إلى العثور على معنى الحياة المنقضية أو استعادته ونقصد بذلك اتجاه الحياة ودلالتها معا"[16]، وهي:

"**1-التباري مع الزمن:** وفي هذا الدافع يتلذذ مؤلف السيرة الذاتية... بالتذكر خاصة استحضار الذكريات البعيدة...ذكريات الطفولة والشباب"[17]، وهذا الدافع "تشترك فيه كل

الأعمال السير ذاتية لأن التذكر قوامها جميعا، فالكاتب باستحضاره الذكريات الماضية يجد متعة يصعب تفسيرها؛ لأن الذاكرة مثلما تسترجع الجميل والمفرح من الأحداث تعرض المشاعر الحزينة والمؤلمة أيضا.

"**2-عثور المرء على معنى لوجوده:** يكون المرء أحيانا بحاجة إلى كتابة سيرته الذاتية ليثبت حضوره، وليؤكد لنفسه قبل الآخرين أن وجوده مهم وله معنى وقيمة، لأنه قد لا يشعر بهذا الوجود إلا من خلال إنجاز عمل يقوم به في حياته"[18]، أومن خلال تفجير طاقاته "الإبداعية في سرد ما تأمل الوصول إليه،... ومن هنا تتولد الرغبة في الكتابة، الرغبة في استعادة مسار حياته المنقضية"[19]، ومن أمثلة ذلك ما نجده عند فدوى طوقان، التي تقر بأنها كتبت سيرتها الذاتية بعد أن وجدت دافعا ساعدها في تدوينها تقول: "لماذا أكتب هذا الكتاب الذي أكشف فيه بعض زوايا هذه الحياة التي لم أرض عنها أبدا؟ بتواضع غير كاذب أقول إن هذه الحياة، على قلة أثمارها، لم تخل من عنف الكفاح...وقصتي هنا هي قصة كفاح البذرة مع الأرض الصخرية الصلبة،...فلعل في هذه القصة إضافة خيط من الشعاع ينعكس أمام السارين في الدروب الصعبة...على هذا الطريق الصعب رماني المجهول، ومن هذا الطريق الصعب بدأت رحلتي الجبلية"[20]؛ فهي انطلقت من سؤال جوهري كشفت من خلاله الدافع القوي الذي دفعها إلى كتابة سيرتها الذاتية.

ما نستشفه من خلال ما سبق أن دوافع كتابة السيرة الذاتية كثيرة ومتنوعة لا يمكن حصرها، وذلك لأن لكل كاتب دوافعه ومبرراته الخاصة بها التي تدفعه إلى تدوين سيرته، على أنه يمكن اعتبار أن دافع التمرد على الأعراف وكسر القيود الاجتماعية دافعا خاص ومميزا للسيرة الذاتية النسائية.

الهوامش:

[1]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2014–2015، ص: 181،183.

[2]–المرجع نفسه، ص: 185.

[3]– المرجع نفسه، ص: 188.

[4]– تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ط1: 2002، ص: 26.

[5]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، ص: 188.

[6]– إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق، عمان –الأردن، ط1: 1996، ص: 132.

[7]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، ص: 189.

[8]–المرجع نفسه، ص : 190.

[9]–المرجع نفسه، ص : 192.

[10]–أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر (دراسة في نماذج مختارة)، المركز الثافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط1: 2005، ص: 118.

[11]–المرجع نفسه، ص: 118.

[12]– جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي، عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة– مصر)، ط1:2017، ص70 .

[13]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، ص: 196.

[14]– جورج ماي: السيرة الذاتية، ص: 73.

[15]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، ص: 198.

[16]– جورج ماي: السيرة الذاتية، ص: 60–61.

[17]–المرجع نفسه، ص : 80.

[18]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، ص: 200–202.

[19]– أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر (دراسة في نماذج مختارة)، ص: 126.

[20]–فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة (سيرى ذاتية)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، د.ط، د.ت، ص: 9–11.